الغزو الثقافي والأمة العربية

مسيرته ـ وسائله ـ أهدافه

د. سمير قطامي ـ الأردن ـ

إن كلمة (ثقافة) جديدة في اللغة العربية، وهي ترجمة لكلمة (Culture) الانجليزية، فالكتب القديمة لم تستعمل هذه الكلمة لتدل على تحصيل معين، ولكن ابن منظور في معجمه لسان العرب يربط بين التثقيف والحذق وسرعة التعليم، مع أنه يبين معاني كلمة (ثقف) أنها حدد وسوى.. ويعرفها المعجم الوسيط بأنها العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق فيها.. ويصفها بأنها كلمة محدثة في اللغة العربية.. ويعتقد مالك بن نبي أن هذه الكلمة لم تستعمل بهذا المدلول المتعلق بالإلمام والمعرفة إلا في العصر الحديث[1].. فالثقافة إذن هي ما يقدم لعقل الإنسان ونفسه وحسه بشكل متوسط[2].. أو هي مجموعة من المعارف والعلوم العامة والتحصيلات، يدركها الإنسان في مجتمع ما نتيجة لظروف سياسية واجتماعية وثقافية، يعيشها ويتفاعل معها.. وهذا يؤدي بنا إلى القول إن ثقافة شخص في بقعة ما، أو عصر ما، تختلف عن ثقافة شخص في بقعة أخرى أو عصر آخر.. وعندما نقول الثقافة العربية المعاصرة، فنحن نوسع العبارة لنعني بها التحصيل التراثي المشترك، والوعي على الحاضر، والنظرة إلى مستقبل مشرق، متجاوزين الحدود الإقليمية، والإلمام بما يحدث في العالم، هذا العالم الذي أصبح صغيراً بفضل الثورة الهائلة في وسائل الاتصالات.

إذن يمكن القول إن الثقافة العربية المعاصرة هي نتاج مجموعة من العوامل منها المدرسة والبيت والمعهد والجامعة والصحيفة والمجلة والكتاب والإذاعة والتلفاز...

فإلى أي حد وقعت هذه العوامل أو وقفت في مواجهة الغزو؟ وإلى أي حد اضطلع المثقفون العرب بأدوارهم في هذا الإطار؟

تعرض الوطن العربي والإنسان العربي لأنواع من الغزو الثقافي والفكري والحضاري والاحتلالي منذ قرون طويلة، ففي زمن الدولة الأموية نجد بدايات لذلك، وإن كانت تقابل بحسم، فهذا الشاعر الفارسي الأصل اسماعيل بن يسار النسائي يتفاخر بأصله ويزري على العرب قائلاً:

فاتركي الفخر يا إمام علينا ... واتركي الجور وانطقي بالصواب
واسألي إن جهلت عنا وعنكم ... كيف كنا في سالف الأحقاب
إذ نربي بناتنا وتدسّو ... ن سفاهاً بناتكم في التراب

ويدعوه هشام بن عبدالملك لينشده من شعره فإذ به يسمع منه مباهاة بقومه الفرس في قوله:

أصلي كريم ومجدي لا يقاس به ... ولي لسان كحد السيف مسموم
أحمي به مجد أقوام ذوي حسب ... من كل قرم بتاج الملك معموم
ومن مثل كسرى وسابور الجنود معا ... والهرمزان لفخر أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا ... وهم أذلوا ملوك الترك والروم

فيغضب هشام ويسبّه ويأمر بإلقائه في بركة أمامه ثم ينفيه إلى الحجاز[3].

وفي الإعداد للثورة على الدولة الأموية يقول إبراهيم بن محمد بن علي لأبي مسلم الخراساني: «إن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل، فأيّما غلام بلغ خمسة أشبار نتهمه فاقتله»[4] أما قحطبة بن شبيب أحد القواد الذين لعبوا دوراً في تقويض أركان الدولة الأموية، فيقول مخاطباً أهل خرسان: «يا أهل خرسان هذه البلاد كانت لآبائكم الأولين، وكانوا ينصرون على عدوهم بعدلهم وحسن سيرتهم، حتى بدلوا وظلموا، فسخط الله عزّ وجل عليهم، فانتزع سلطانهم، وسلّط عليهم أذلّ أمة كانت في الأرض عندهم، فغلبوهم على بلادهم، واستنكحوا نساءهم واسترقوا أولادهم»[5]... ولا يخفى ما في هذا الكلام من حقد على العرب واحتقار لهم، فمنذ العصر العباسي أي القرن الثاني للهجرة، أخذت المحاولات الأجنبية في الازراء على العرب والتعالي عليهم والانتقاص من أقدارهم، والهجوم على ثقافتهم وتراثهم وعاداتهم وتقاليدهم، تظهر بشكل سافر، وكان الفرس هم قادة هذه الحملات الحاقدة التي كانت تحاول تجريد العرب من كل الفضيلة. فهذا بشار بن برد الشاعر المشهور الفارسي الأصل، الذي كان في العصر الأموي يفخر بأنه مولى من موالي العرب، وبأنه من عقيل ومضر: (أنا من بني عقيل موضع السيف من طلى الأعناق):

إذا ما غضبنا غضبة مضرية ... هتكنا حجاب الشمس أو تمطر دما
إذا ما أعرنا سيداً من قبيلة ... ذرى منبر صلى علينا وسلما

نراه يفخر بعد زوال الدولة الأموية والراية العربية بأنه من نسل القياصرة والأكاسرة أولئك العظماء الأماجد ذوي الحضارة والمكانة، وليس من العرب المتخلفين الذين يأكلون الضب والحنظل:

هذا العدد الممتاز

تحت عنوان «التحدي والاستجابة في الثقافة العربية المعاصرة» انعقد في بغداد، من ١٧ الى ٢٤ آذار الماضي ١٩٨٦، المؤتمر العام الخامس عشر للاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب ومهرجان الشعر السابع عشر

وعلى جاري عادة «الآداب» يصدر هذا العدد الممتاز متضمنا معظم أبحاث هذا المؤتمر كوثيقة أدبية ومرجع هام يجد فيها النقاد والباحثون كثيراً من وجوه النشاط في ثقافتنا العربية المعاصرة.

هل من رسول مخبر عني جميع العرب
من كان حيا منهم ومن ثوى في الترب
جدي الذي أسمو به كسرى وساسان أبي
وقيصر خالي إذا عددت يوماً نسبي
ولا حدا قط أبي خلف بعير جرب
ولا أتى حنظلة يثقبها من سغب
ولا شوى ورلا منضنضاً بالذنب
ولا تقصعت ولا أكلت ضب الخرب
كلا ولا كان أبي يركب شرجي قتب
إنّا ملوك لم نزل في سالفات الحقب[٦]

ويقول هاجياً مواليه العرب مخاطباً أحدهم:

انا ابن الأكرمين أباً وأماً تنازعني المزارب من طخار
اذا انقلب الفرمان علا بعبد وسفل بالبطاريق الكبار
ملكناكم فغطينا عليكم ولم ننصبكم غرضاً لزار
أحين لبست بعد العرس خزاً ونادمت الكرام على العكاز
تفاخر يا ابن راعية وراعي بني الأحرار حسبك من سخارِ
وكنت إذا ظمئت الى فراح شركت الكلب في ذاك الاطار
وتدلج للقنافذ تدريها وينسيك المكارم صيد فار
وفخرك بين يربوع وضب على مثلي من الحدث الكبار
مقامك بيننا دنس علينا فليتك غائب في حر نار[٧]

وهذا أبو نواس يضرب على الوتر ذاته وفي أكثر من قصيدة وموقف فيقول:

فأين البدو من إيوان كسرى وأين من الميادين الدروب[٨]

ويقول:

عاج الشقي على رسم يسائله ورحت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد لا درّ درّك قل لي من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ومن لفّهم ليس الأعاريب عند الله من أحد[٩]

ولو أن الأمر وقف عند الشعراء والشعر لقلنا إنها شطحات عابرة لا يؤاخذون عليها، ولكن القضية كانت أبعد من ذلك، بل يمكن القول إنها كانت حملة منظمة واتجاهاً عاماً انعكست في كل منحى من مناحي الحياة العباسية، وامتدت لتطال أهم ركن للعروبة.

فالبلاغة العربية والبديع العربي ووسائل التعبير الفنية... كل هذه في نظر الشعوبيين فارسية الأصل وليست عربية.. وهذا ما دفع بعدد من الغيورين العرب كالجاحظ وابن المعتز، الى الاضطلاع بمهمة الرد على هذه الدعوة الشعوبية وتفنيدها.. وهذا كتاب الجاحظ المشهور (البيان والتبيين) محاولة لإثبات أصالة اللغة العربية وجمالها وروعتها وقدرة العرب البلاغية قبل الاحتكاك بالفرس.. وهذا كتاب البديع لابن المعتز محاولة أخرى للرد على الاتهامات الحاقدة بأن البديع كله دخيل في اللغة العربية ومأخوذ من الفارسية.. وقد اعتمد ابن المعتز على الشعر الجاهلي وعلى الأقوال المأثورة وعلى القرآن الكريم والأحاديث النبوية لإثبات آرائه، فيقول في مقدمة كتابه: (قدمنا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن[١٠].

لم تتوقف تلك الحملة، بل كانت في تصاعد مستمر يتناسب مع ضعف العنصر العربي على الرغم من أن الرسول ﷺ يقول: «من آذى العرب فقد آذاني».. ومن هذا المنطلق نفهم جيداً تجسيد الحس القومي في شعر المتنبي، إذ رأى العناصر غير العربية تقسم مقادير الأمور في أنحاء البلاد العربية فقال:

إنما الناس بالملوك وما تفـ ـلح عرب ملوكها عجم
في كل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنها غنم
أفعال من تلد الكرام كريمة وفعال من تلد الأعاجم أعجم

* * *

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

ومن هذا المنطلق نفسر إقامته في بلاط سيف الدولة، الأمير العربي الوحيد آنذاك حوالى تسع سنوات بجسده وروحه. فسيف الدولة هو الرمز الحي الذي يمكن أن يجسد آمال المتنبي ويحقق طموحاته المحبطة.. ومن هذا المنطلق نفسر امتناعه عن هجائه بعد رحيله عنه، مع انه رحل غاضباً مهاناً. ومن هذا المنطلق ايضا نفهم لاميته:

ما لنا كلنا جوٍ يا رسول أنا أهوى وقلبك المتبول

تلك القصيدة التي بعث بها المتنبي الى سيف الدولة سنة ٣٥٢هـ وبعد هروبه من مصر، إثر هدية من سيف الدولة أنفذها إليه مع ابنه عارضاً عليه العودة.. وفي تلك القصيدة يقول:

ليس إلاك يا علي همام سيفه دون عرضه مسلول
كيف لا تأمن العراق ومصر وسراياك دونها والخيول
لو تحرفت عن طريق الأعادي ربط السدر خيلهم والنخيل
ودرى من أعزه الدفع عنه فيهما انه الحقير الذليل
أنت طول الحياة للروم غاز فمتى الوعد أن يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أي جانبيك تميل
قعد الناس عن مساعيك وقامت بها القنا والنصول

ما الذي عنده تدار المنايا كالذي عنده تدار الشمول[١]

لقد استولى البويهيون والسلاجقة والتتار والصليبيون على هذا الوطن وكان العنصر العربي هو الضحية الأولى والمعاني الأكبر في حلبة الصراع، ثم جاء الأتراك سنة ١٥١٦م ليجثموا على معظم أرجاء الوطن العربي ويحيطوها بسياج العزلة ويدخلوها في طور من السكون الذي يشبه الموات في الوقت الذي كانت فيه النهضة قد بدأت تدب في أوروبا، وقد ظلت الدولة العثمانية دولة غزاة طوال تاريخها لوقوعها على حدود دينين ومدنيتين متنافستين كما ظلت دولة عسكرية تحكم في الداخل بأسلوب صارم[١٢]. . ففي الوقت الذي كانت فيه الحركة التعليمية والثقافية محدودة جداً في أرجاء الوطن العربي، كانت النهضة العلمية والتكنولوجية تسير في أوروبا بخطى سريعة، تاركة آثارها على السياسة والاقتصاد وحركة التوسع. وفي الوقت الذي خرجت فيه أوروبا للاستعمار والاستيلاء على بقاع شاسعة في آسيا وإفريقيا وأميركا، كان العالم العربي يغط في سبات عميق، تداعب جفونه أحلام الماضي العريق والمفاخر القديمة، والسطوة البائدة، ولم يستيقظ على الحقيقة المرّة إلا وهو يسمع قصف الأسطول الفرنسي في المياه المصرية سنة ١٧٩٨ تلك الحملة (حملة نابليون) التي كشفت العورة وفتحت أبواب الشرق العربي على مصاريعها للاستعمار الأوروبي الحديث، وأظهرت مدى التفاوت الرهيب بين الشرق وأوروبا، ذلك الاستعمار الذي ما تزال الأمة العربية تعاني من شروره ومصائبه حتى الآن.

لقد عاش الوطن العربي سنين طويلة في العهد العثماني في ظلام دامس، فحتى القرن التاسع عشر لم تكن في البلاد العربية مدارس أو معاهد أو جامعات أو مطابع أو صحافة، وعندما بدأت الدولة في القرن التاسع عشر تفتح بعض المدارس، كانت اللغة التركية هي لغة التدريس[١٣] ناهيك عن حركة التتريك التي تعرض لها العنصر العربي في أواخر أيام الدولة العثمانية. . فالأمية طاغية، واللغة العربية محاربة، وفي الدرك الأسفل (من يطلع على بعض النصوص العربية في تلك الحقبة يشعر بمدى التردي الذي وصلت اليه اللغة ووسائل التعبير) أما الاستبداد والتعصب والفقر والفتن والحروب. . . فهي من الأمور العادية. . وهذه كلها كان يدفع ثمنها الانسان العربي البسيط. . هذا الإنسان الذي فرض عليه أن يعيش قسوة هذه العصور، ثم طلب منه أن يواجه الكفار الأوروبيين المسلحين بأحدث وسائل العلم، دون أن يُعدّ لذلك، فخرج يحمل السيوف والعصي والسكاكين لمواجهة أسلحة الجيش الفرنسي التي كانت قد بلغت درجة متقدمة آنذاك[١٤].

. . . وطبعاً كانت النتيجة محسومة. . . ومن يقرأ تاريخ الجبرتي المؤرخ المصري الشهير، يلمس المستوى المريع من التخلف الذي وصل إليه المصريون آنذاك.

لم يكن نزول نابليون مصر بحملته المشهورة ارتجالياً، بل تمّ بعد تخطيط دقيق ودراسة متأنية وفهم للواقع العربي عامة، والواقع المصري خاصة. . وقد اعتمد نابليون في ذلك على جهود الرحالة الفرنسيين الذين زاروا الشرق وكتبوا عنه، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً، وبشكل خاص على دراسات كونت (دوفولني) الذي سافر إلى الشرق سنة ١٨٧٣م ووضع كتابه المشهور (رحلة الى مصر وسوريا) ونشره في مجلدين سنة ١٧٨٧م.

لقد عدّ فولني نفسه عالماً مهمته أن يسجل بدقة ما يراه، ويعاين الشرق بوصفه مكاناً يحتمل أن تتحقق فيه الطموحات الفرنسية الاستعمارية. . وتأتي ذروة آراء فولني في الجزء الثاني من الكتاب، حيث يتحدث عن الإسلام بوصفه ديناً ونظاماً. . . كما اعتمد نابليون على كتاب فولني الآخر (نظرات في الحرب الراهنة للأتراك (١٧٨٨م). . وقد أشار نابليون صراحة لذلك في تأملاته حول الحملة المصرية، التي أملاها على الجنرال (برتران) في جزيرة هيلانة، ومما قاله: «إن فولني رأى أن ثمة ثلاثة حواجز في وجه السيطرة الفرنسية في الشرق، وأن أية قوة لا بد أن تحارب لذلك ثلاث حروب، الأولى ضد انكلترا، والثانية ضد الباب العالي العثماني، والثالثة وهي أكثرها صعوبة ضد المسلمين»[١٥]. . والمتتبع لأسلوب نابليون في معاملته للمصريين، وفي إدارته للشؤون وفي إعلانه إسلامه - كما قيل - لإقناع المسلمين أنه يحارب من أجل الإسلام، وفي تكريمه للعلماء والأئمة والقضاة، واجتماعه معهم، وفي إجلاله الواضح للقرآن[١٦] وفي اعتماده على العلماء والمستشرقين الفرنسيين، وعلى المستشرق الكبير سلفستر دي ساسي الذي كان ابتداء من سنة ١٧٩٦م المدرس الأول والأوحد للعربية في المدرسة الأهلية للغات الشرقية التي أسسها نابليون لتدريس العربية والتركية والفارسية، هذا المستشرق الذي يعد معلماً لكثير من المستشرقين في أوروبا. . . وفي قيام نابليون بتخصيص جهاز لدراسة مصر دراسة دقيقة، تلك الدراسة التي خرجت بالكتاب الضخم (وصف مصر) المطبوع في ثلاثة وعشرين مجلداً ضخماً. . . أقول إن المتتبع لكل هذه الجهود يلمس بعمق مدى التركيز على الجهود الثقافية التي رافقت المد الاستعماري، لما لها من دور في توطيد أركان الاحتلال.

ولا أكون مغالياً إذا قلت إن أثر الحملة الفرنسية في مصر وبلاد الشام كان كبيراً، حتى بعد خروج الفرنسيين، فمحمد علي باشا بدأ يتعاون مع الفرنسيين، ويستعين بخبرتهم في الإدارة وتنظيم الجيش، ثم أخذ يرسل بعثاته الى هناك. . . وعلى هذا يمكن القول إن التشكل الثقافي والإداري في عهد محمد علي وأبنائه، يدين للغرب، ولفرنسا بشكل خاص، وهذا ينطبق الى حد على ما على تونس. . فالمتتبع لما كتبه رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) في كتبه تخليص الإبريز ومناهج الألباب، وما كتبه خير الدين التونسي (١٨١٠-١٨٨٩) في كتابه (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) يلاحظ مدى التأثر الكبير بالحرية والعدالة والمساواة التي تنشر في فرنسا، وبأدوات الحضارة الأوروبية أي بالجانب العلمي والإداري.

أما بلاد الشام فقد تأثرت بالصراع الطائفي بين الدول الأوروبية فكثرت فيها المدارس التبشيرية والطائفية، وانتشر التعليم في أوساط الشباب والفتيات، وأسست المعاهد العليا والجامعات، وإن كانت كل منها تحاول توجيه طلابها الى ثقافة الدول التي تنتمي اليها، وترسخ الولاء في نفوس الطلاب نحو الدول الأجنبية التي تدعمها.

لقد وجد الاستشراق في بلاد الشام، وخاصة في لبنان ميداناً واسعاً لنشاطه، وذلك لوجود عدد من الطوائف والمذاهب فأسس المراكز والمعاهد والمطابع والمجلات، وعمل على تقسيم أبناء الوطن الواحد، بل الدين الواحد والقرية الواحدة، مما أدى الى نشوب فتن وحروب عدة ذهب ضحيتها الآلاف، وما يزال المجتمع اللبناني يعاني من ذيولها

وحزازاتها حتى يومنا هذا، بل إن ما يحدث في لبنان اليوم هو امتداد للماضي.. فتعدد الولاءات الطائفية، وضعف الولاء الوطني والقومي أو فقدانه، وتحويل لبنان الى مركز من مراكز النفوذ الغربي في قلب الوطن العربي، ومراكز التجسس، وسلخ وجهه العربي، لغة وعلاقات وارتباطات ومستقبلاً.. كل ذلك قد تم تحت شعار النشاط الثقافي.. وما يعانيه لبنان اليوم من التمزق والتشرذم وتصارع الولاءات هو نتيجة طبيعية لتلك الجهود الرهيبة.

لا أراني مغالياً إذا قلت إن أوروبا كلها قد استفادت من تجربة نابليون الثقافية والإدارية، فزادت من تشجيع الجهود الاستشراقية، تلك الجهود التي بلغت أوجها في القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، وهي الحقبة التي تم فيها احتلال العالم العربي كله تقريبا.. ويكفي أن نعلم أن عدد الكتب المتعلقة بالشرق الأدنى التي صدرت بين سنتي ١٨٠٠ و١٩٥٠ في الغرب قد قدرت بحوالى ٦٠ ألف كتاب، ليس لها ما يقاربها في الشرق عن الغرب،[١٧]، أو في الشرق عن نفسه، وهذا يدلنا على مدى الهوة الرهيبة التي تفصلنا عنهم.

إن المطلع على وثائق منح فلسطين لليهود يوقن بعضوية العلاقة بين الاستعمار وبين الغزو الثقافي، ففي سنة ١٩٠٧ كان (كامبل باترمان) رئيس وزراء بريطانيا، وهو ممن يهتمون بالدراسات التاريخية، ويعتمد اعتماداً كبيراً على المستشرقين وعلى المؤسسات العلمية والمبشرين، وكان حريصاً أن يمدّ في عمر الامبراطورية البريطانية، أو يجدد شبابها، فألّف لجنة من كبار العلماء وأساتذة الجامعات البريطانيين والفرنسيين، وطلب منهم أن يبحثوا الوسائل التي تستطيع أن تبقي الاستعمار البريطاني أو تؤخر من نهايته على الأقل... وقد قامت اللجنة بدراسات تاريخية واسعة، وانتهت الى تصور عام لمستقبل الاستعمار الأوروبي.. وقد استعرض التقرير المستعمرات الأوروبية المختلفة، فلم ير في استقلالها في المستقبل عندما يتحقق خطراً مباشراً على أوروبا... ولكن التقرير حدد مواطن الخطر في البحر الأبيض المتوسط، وبالذات في الوطن العربي بجناحيه الاسيوي والأفريقي حيث يعيش شعب واحد تتوافر له وحدة تاريخه ودينه وآماله ، وعنده من الثروات الطبيعية والمراكز وكثرة التناسل ما يمكن أن يحقق له قوة مرموقة.. ويتساءل التقرير ماذا لو دخلت الوسائل الفنية الحديثة ومكتشفات الثورة الصناعية؟ ،وماذا لو انتشر التعليم في أوساط هذا الشعب؟ عند ذلك ستحل الضربة القاضية بالامبراطوريات الأوروبية... إن الخطر كامن في هذه المنطقة وفي تثقيف شعبها وتوحيد اتجاهاتها... ويوصي التقرير بإبقاء هذه المنطقة مجزأة متأخرة ومتناحرة مفككة.. كما يوصي التقرير بضرورة فصل الجزء الأفريقي عن الآسيوي ويقترح إقامة حاجز بشري قوي وغريب، يكون قوياً وصديقاً للاستعمار وعدواً لسكان المنطقة[١٨] وهذا ما يفسر لنا خلق اسرائيل واستمرار الدول الغربية في دعمها.

إن النجاح الكبير للاستشراق في العالم العربي قد حوّل مراحل كاملة من تاريخ هذا العالم سياسياً واجتماعياً وثقافياً واقتصادياً الى مجرد استجابات للغرب.. أي أن الشرق قد أعيدت صياغته، وأعيد تشكيله من قبل الغرب بالصورة الملائمة والمريحة، وأن الغرب هو الذي قام بهذه العملية، وهو المستفيد الأول منها، لذا ليس مستغرباً أن نقول إن الاستعمار الاوروبي للوطن العربي قد ارتبط ارتباطاً عضوياً بالغزو الثقافي الذي حملت لواءه مؤسسات الاستشراق ودوائره.. فالاستشراق لم يكن - في غالبه - علمياً أو موضوعياً، أو باحثاً عن الحقيقة المجردة، ولكنه نتاج مؤسسات ظاهرها علمي بحثي، وباطنها أو تمويلها وتوجيهها سياسي عدائي، أو قل هدفها تأطير الشرق من خلال المفاهيم الغربية ونظرة الاستعلاء والاحتقار والاستعمار والتعصب والعدوانية.. تقول الدكتورة الألمانية سيجريد هونكه «إن موقف أوروبا من العرب منذ نزول الوحي المحمدي موقف عدائي بعيد كل البعد عن الانصاف والعدالة.. والتاريخ وقتذاك كان يملي ويصنع والمملي لم يكن الضمير بل التعصب الأعمى.. إن مثل هذا الوضع كان مفهوماً في عصر كان فيه الشعور السائد هو إغماط حق كل فرد يخالف الأوروبيين عقائدياً.. ومما يؤسف له حقاً أن هذه النظرة القديمة التي كان مبعثها الظن في أن الاعتراف للعربي بالفضل يهدد العقيدة المسيحية، ما زالت قائمة حتى اليوم، والتعصب الديني ما زال جاداً في إقامة الحواجز بين الأوروبيين والشعوب الأخرى، إذ ينظر الغربي اليهم كما لو أنهم مجرمون وثنيون وسحرة»[١٩].

لقد مورست على هذه الأمة وسائل عدة من الإهانة والإذلال والقهر وإضعاف الثقة، وتعرض الإنسان العربي إلى نعوت سيئة منها أنه متخلّف، كسول، سيء الظن، خبيث، مخادع، غشاش، شهواني، منافق، كذاب، فوضوي، لا يحسن التنظيم، ليس لديه تصور للتاريخ، أو للأمة، أو للوطن، عدواني يكره السلام، لا يحسن التعامل مع الأمور بمنطق وعقلانية، فاقد الحس بالقانون، عقله غير قادر أو مهيأ للتحليل والاستنتاج، ضعيف الإحساس بالوقت... مثل هذه الصفات وغيرها قد ترسخت في أذهان الأوروبيين عن العرب، وجاءت جهودهم وبحوثهم لتأكيدها وإيجاد الأسباب البيولوجية والنفسية والتاريخية لها، وكأن الله قد خلق الناس مراتب وأنواعاً وفضّل بعضهم على بعض، وعلى رأس القائمة يأتي الأوروبيون، وبعدهم بدرجات تأتي الشعوب الأخرى!!

إن العقد التي تحكمت بالأوروبيين وهم يدرسون الشرق هي عقدة السيد والعبد وعقدة الحضارة الأوروبية المتقدمة، والحضارات الشرقية المتخلفة، وعقدة الاستعمار، والتحكم، ومن هذا المنطق يجب على الأوروبيين أن يحكموا هذا العالم المتخلف ويستولوا على مقدراته وثرواته، ويتحكموا بأبنائه.. ومن هذه المنطلقات يمكن فهم الصور الشائهة التي يرسمها الأوروبيون للشرقيين عامة، وللعرب خاصة، كأن لم يكن عندهم أسوأ منها في العصور السابقة، حتى يترسخ في أذهان أبناء هذه الأمم المغلوبة أنهم غير قادرين أو مهيئين لحكم أنفسهم أو إدارة شؤونهم، ولا بد للأمم المتقدمة أن تحكمهم وتدير شؤونهم... وهذا الإحساس للأسف ما يزال موجوداً لدى فئات كثيرة من أبناء الشرق... أو كما قال أحد المنظرين الإعلاميين الأميركيين «لا يهم ما يكونه البشر أو ما يعتقدونه، بل ما يمكن أن يدفعوا إلى أن يكونوه أو يعتقدوه»[٢٠]. ومن هذا المنطلق كانت الدول الاستعمارية تسمي استعمارها لشعوب آسيا وأفريقيا تمديناً وتحضيراً، وتصفه بالدور الإنساني لمساعدة الأمم المتخلفة.

شهد القرن العشرون، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، في الظاهر، حركة استقلال معظم الأقطار العربية، وكثير من الدول الآسيوية والأفريقية، كما شهد انحسار دور بريطانيا وفرنسا في المسيرة

الاستشراقية والاستعمارية، ولكن ظهور الولايات المتحدة على الساحة الاستعمارية والاستشراقية، بما عندها من إمكانيات مادية وتقنية، قد أدخل شكلاً جديداً من أشكال الهيمنة والغزو على الشرق، وعلى الدول الضعيفة.. وإذا كان اهتمام الولايات المتحدة على الساحة الاستعمارية والاستشراقية، بما عندها من إمكانيات مادية وتقنية، قد أدخل شكلاً جديداً من أشكال الهيمنة والغزو على الشرق، وعلى الدول الضعيفة.. وإذا كان اهتمام الولايات المتحدة بالاستشراق يعود الى سنة ١٨٤٢، وهو تاريخ تأسيس الجمعية الشرقية الأمريكية[٢١]، فإن الدور الفعلي للولايات المتحدة قد تأخر حتى القرن العشرين، حيث ورثت الولايات المتحدة أدوار دول أوروبا الاستعمارية، واستعانت بمستشرقيهم، مع تطوير في الأساليب، فما عاد المستشرق مهتماً باللغات واللهجات فقط، بل هو خبير مدرب في ميدان السياسة والاجتماع وعلم النفس والتاريخ، مسلح بنظريات اجتماعية ونفسية ومناهج تحليلية، يوجهها ويبرمجها لتخدم أهدافاً استعمارية» وقد وجدت الولايات المتحدة نفسها، بعد الحرب العالمية الثانية في مواجهة خصم جديد قوي هو الاتحاد السوفياتي، ينافسها على نفوذها، ويستقطب حوله عدداً من دول العالم الثالث التي كانت الى وقت قريب مستعمرات أوروبية.

يمكن القول إن النصف الثاني من القرن العشرين قد شهد صداماً قوياً بين الكتلتين الشرقية والغربية على مناطق عدة في العالم، ويمكن القول أيضاً إن الصراع لم يتم في الغالب بالقوى العسكرية، ولكنه كان يتم بالعلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية، ومن هنا أخذت الولايات المتحدة تركز على تطوير الاستشراق، وجعلته جزءاً من جهاز الاستخبارات الأميركية ... فهو استشراق جديد يعمل فيه متخصصون في العادات والتقاليد والأديان والمعتقدات واللغات واللهجات والتاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع والاقتصاد والجذور الثقافية والأجناس ... أي كل ما يتعلق بتاريخ الشرق.. لقد استطاعت الولايات المتحدة، بفضل أجهزتها الاستشراقية وخبرائها في الميادين العربية والإسلامية، أن تفهم حساسية الدين في الدول الشرقية، وتلتف حول عدوها الكبير (الاتحاد السوفياتي) بما يرضي عقل الشرقي اللامنطقي وذلك بزيادة توتره الديني وتخويفه على دينه من الشيوعيين الملحدين!! في الوقت الذي تسيطر فيه الولايات المتحدة على العالم الإسلامي كله تقريباً دون استعمال الجيوش.. بل إن بعض الأقطار العربية والإسلامية هي التي ألقت نفسها في أحضان أميركا.

إن الدور الذي تلعبه السياسة الأميركية بتوجيه من الدوائر الاستشراقية، في الدول العربية والإسلامية، ومعظمها متاخم أو قريب من حدود الاتحاد السوفياتي، مشابه للدور الذي لعبه نابليون في مصر خلال حملته المشهورة، ومتأثر به.. فالدوائر الأميركية تظهر للمسلمين أنها تحترم دينهم وتخاف عليه وعليهم من المد الشيوعي الإلحادي، ولولاها لداسهم الدب الأحمر!! ومن أجل ذلك هي تدعم الحركات الإسلامية ضد الاتحاد السوفياتي وتدعم ثوار أفغانستان بالسلاح والمال وتسميهم المجاهدين (بلغ مجموع ما دفعته أميركا لثوار أفغانستان في عام ١٩٨٥: «٤٧٠ مليون دولار») في الوقت الذي تصف فيه الثوار الفلسطينيين بأنهم إرهابيون وقتلة وترفض الاعتراف بحقوقهم في أراضيهم لأنهم ضد اسرائيل!

إن الصور المغرضة التي تنشرها أجهزة الاستشراق وأجهزة الاستخبارات الأميركية في الدول الإسلامية والعربية حول الاتحاد السوفياتي من خلال البرامج والنشرات، هي التي تقوم مقام أعداد هائلة من الجيوش، وهي كفيلة بزيادة ارتباط هذه الدول وارتمائها في أحضان الولايات المتحدة.. وخير دليل على ذلك أن عدداً من الدول الإسلامية والعربية ما تزال حتى الآن لم تعترف بالاتحاد السوفياتي ولم تقم معه علاقات، بل تمنع رعاياها من زيارته وزيارة الكتلة الشرقية كلها.. ووصل الأمر ببعضها الى تخصيص الأموال الهائلة لإنفاقها على الدعاية الموجهة ضده، على الرغم من مواقفه الممتازة مع العرب متناسية أميركا وانحيازها السافر والوقح إلى اسرائيل ضد العرب، ومتناسية الحملات السيئة ضد العرب والمسلمين في الصحف والمجلات.

إن افتعال التصادم في أقطار العالم العربي بين الإسلام والقومية، لهو واحد من الميادين التي تغذيها الأجهزة الأميركية وتنفخ في نيرانها، فالولايات المتحدة عندما أيقنت أن المد القومي يمكن أن يشكل خطراً على اسرائيل وعلى المصالح الأميركية، ضربته بالاتجاه الديني من منطلق أن الاتجاه القومي هو ضد الإسلام وهو في النهاية يصب في بحر الاتحاد السوفياتي، وبهذا يمكن أن نفسر وقوف أميركا الى جانب الأحزاب والجماعات الدينية، ودعمها لهم وتوجيههم وإمدادهم بالمال.

إن الأسلوب الذي سارت عليه حركة الاستشراق في أوربا وأميركا، قد اصطنعته الصهيونية قبل وبعد وجود اسرائيل.. ولا أراني مبالغاً إذا قلت إن ما عند اسرائيل من إحصاءات ودراسات اجتماعية، وتحليلات سياسية دقيقة عن العالم العربي.. قد قدمت خدمات جلّى لاسرائيل في الماضي والحاضر، ولا شك أنهم يعتمدون عليها في رسم سياستهم للمستقبل، وفي التعامل مع الدول العربية والاسلامية، وفي إعلامهم الموجه.. وقد بدا ذلك في تعاملهم مع المنظمات الفلسطينية وشق صفوفها، ومع الطوائف الدينية والعرقية في لبنان، كما بدا في تأييدهم لايران وإمدادها بالسلاح والخبراء، في حربها مع العراق.. ولا أعتقد أن مثل تلك الدراسات، سواء ما كان منها عن العالم العربي أو عن اسرائيل موجود في العالم العربي، على الزغم من وجود الجيوش الجرارة من الموظفين في جامعة الدول العربية وفي منظماتها، تلك الجيوش التي لا هم لها إلا أن تقبض الرواتب الضخمة بالدولار الأميركي.

نستطيع القول إن المجتمع العربي والإنسان العربي والثقافة العربية واللغة العربية والشخصية العربية.. كل هؤلاء يتعرضون في الوقت الحاضر إلى غزو رهيب وعداء شيطاني في محاولة للطمس من قبل أجهزة الاعلام والتوجيه ومراكز التأثير، وخاصة وكالات الأنباء والصحافة ومحطات التلفزيون ومؤسسات الانتاج ومراكز البحوث والصحف والمجلات.. ولا يخفى نفوذ اليهود واسرائيل في هذه المراكز.. ففي الأفلام الأجنبية، وخاصة الأميركية، وبرامج التلفزيون، يرتبط العربي بالفسق والغدر والخسة والتعطش للدم والإفراط في الجنس والسادية وتجارة الرقيق وكل الصفات السيئة التي يمكن أن نتخيلها.. وحتى النشرات الجامعية التي يفترض أن تكون بعيدة عن التحامل لا تسلم من ذلك.. أما الصحف والمجلات فحدث ولا حرج، خاصة حرب ١٩٧٣ وبعد توقف البترول بعض الوقت، فالعرب هم أعداء الحضارة

والإنسانية، لا يستحقون الحياة. ولا بد للجيش الأميركي من احتلال منابع النفط.. والعرب هم أساساً قتلة، والعنف والخديعة محمولان في الموروثات العربية، ولا شيء يربط بين شعوب الشرق الأوسط إلا العداء والكره لليهود والأمة الاسرائيلية[٢٣] وإذا ظهر في الدول العربية والشرقية، شعور معاد للاستعمار ولأميركا فتفسير ذلك أن هذه الشعوب غوغائية معادية للديمقراطية والتقدم.

والغريب في الأمر أن مثل هذه الآراء يطرحها أناس مثقفون وذوو مكانة في المجتمع الأميركي، وليس أناس عاديون، بل إن بعضهم لا يتورع عن طرح مثل هذه الآراء خلال زياراته للبلاد العربية، وهذا ما سمعته من أحد المحاضرين الأميركيين القادمين الى الأردن للاشتراك في ندوة حول الشرق الأوسط منذ سنتين.. وإذا كان في هذه الآراء شيء من الغلو فلا بد من الاعتراف أن تصرفات بعض العرب، وخاصة عرب النفط، في أميركا وأوروبا تساعد على ذلك، بل تهيء الجو الملائم لكره العرب والحقد عليهم وتخلق مادة غزيرة للهجوم عليهم.

في سنة ١٩٧٢ كتب (هارولد غليدن) وهو عضو متقاعد من أعضاء مكتب المخابرات والبحث في وزارة الخارجية الأميركية مقالة بعنوان (العالم العربي) نشرت في المجلة الأميركية للتحليل النفسي، معتمداً على كتاب عن طرابلس الغرب وعدد واحد من صحيفة الأهرام المصرية، ومجلة الشرق الحديث، وكتاب لمجيد خروري.. وقد جاء في مقالته تلك أن العرب يعيشون ثقافة العار، أي أن المجتمع العربي مبني، وظل مبنياً عبر تاريخه على نظام العلاقة الولائية بين التابع والولي، وأن العرب لا يستطيعون الأداء الفعلي إلا في موقف النزاع، وأن الامتياز عندهم يقوم بصورة خالصة على المقدرة على السيطرة على الآخرين، وأن ثقافة العار تجعل من الانتقام فضيلة.. ثم يقتبس عن الأهرام احصائية تقول إنه في عام ١٩٦٩ ارتكبت في مصر (١٠٧٠) جريمة قتل، كان ٢٠٪ منها يعود إلى رغبة محو العار و٣٠٪ الى رغبة في شفاء غليل نابع من حس وهمي أو حقيقي بالغبن و٣١٪ رغبة في أخذ الثأر لدم مراق.. ويضيف الكاتب: إذا بدا من وجهة نظر غربية أن الشيء العقلاني الوحيد فيما يخص العرب هو أن يعودوا الى السلام، فإن الأمر بالنسبة لهم لا يحكمه هذا النوع من المنطق لأن الموضوعية ليست قيمة في نظام القيم عند العرب[٢٤].. والكاتب ينسى أو يتناسى الجرائم البشعة التي تحدث في المجتمع الأميركي يومياً ولأتفه الأسباب، وينسى أن الإنسان هناك يمكن أن يقتل من أجل بضعة دولارات، كما أنه يتناسى الماضي القريب للمجتمع الأميركي حيث كان الرجل يقتل الآخر بسبب خلاف في لعبة ورق.

لقد أصبح العالم العربي في معظمه خلال ربع القرن الأخير، تابعاً بشكل مذهل للولايات المتحدة، يسير في فلكها سياسياً وفكرياً وثقافياً واقتصادياً... وأصبحت البنية الثقافية فيه تكاد تكون صورة ممسوخة للبيئة الثقافية الأميركية، لا فرق كبيراً بين الدول المسماة تقدمية والمسماة رجعية، فكثير من الجامعات العربية ترتبط بعلاقات وثيقة مع الجامعات الأميركية.

... والجميع مطبوعون بالنموذج الأميركي، والجميع يتمنون السفر إلى أميركا واحتذاء مناهجها.. والجامعات العربية ووزارات التربية والتعليم، ووزارات التخطيط، ناهيك عن الأفراد، تركز في إرسال مبعوثيها وطلابها الى الولايات المتحدة وتفضل في التعيين خريجي الولايات المتحدة.. بل إن بعض الجامعات تصرّ على إرسال بعثات الشريعة الإسلامية الى أميركا وترسل أساتذة الشريعة في دورات الى هناك.. وتساعد الولايات المتحدة في ذلك من خلال برامجها الثقافية الموجهة، وذلك بتوفير عدد كبير من البعثات لكل دولة عربية سنوياً، تحت ستار التعاون الثقافي أو التبادل الثقافي.. وقد أدى هذا الى وجود أعداد كبيرة من المبعوثين الحاصلين على مؤهلاتهم من الجامعات والمعاهد الأميركية والمبشرين بالنمط والنموذج الأميركي بل المدافعين عنه دفاعاً حاراً... ولا تكتفي هذه الدوائر الاستشراقية بما وصلت إليه، بل إن مؤسسة فولبرايت الأميركية مثلاً، تقدم كل سنة عدداً من المنح الدراسية لأساتذة من الجامعات العربية، لقضاء مدة من الزمن في أميركا تتراوح بين بضعة شهور وسنة، ويفضلون الأساتذة الذين لم يسبق لهم أن تلقوا دراساتهم في أميركا.. وهكذا يذهب الطلاب والأساتذة ليجلسوا عند أقدام المستشرقين ثم يعودون ليكرروا ما أتقنوه هناك، مستخدمين تدريبهم الأميركي ليشعروا بالفوقية على أبناء أوطانهم!!

إن عملية غسل الدماغ التي يتعرض لها الدارسون العرب من قبل المؤسسات الثقافية الأميركية قد نجحت الى حد كبير، وانتشر تأثيرها بسهولة الى العالم العربي، والى الأجيال التي تتلمذ على أيدي هؤلاء، تحت شعارات متعددة منها الموضوعية والتفكير العلمي والبحث الحر.. فالكتب والمجلات والصحف العربية تمتلىء بتحليلات على نمط التحليلات الأميركية حول (العقل العربي) و(الشخصية العربية) والمعاصرة والحداثة ودخول القرن العشرين، والتخلف العربي والتخلف الحضاري... الخ. من تلك المصطلحات الاستشراقية.. وكتبنا ومجلاتنا مليئة بالطعن وجلد الذات والتعالي على الناس العاديين والانسلاخ والاغتراب.. وهكذا نجد أنفسنا من حيث ندري أو لا ندري في خندق واحد مع الأمبريالية، ننفذ أهدافها، ونحقق مطامعها، وهذا أحد معالم الغزو الثقافي. لقد وصف طه حسين الثقافة المصرية بأنها أوروبية لا شرقية من منطلق إحساسه بأثر التوجيه الثقافي الأوروبي في النخبة بمصر، وذلك في كتابه مستقبل الثقافة في مصر الذي أصدره سنة ١٩٣٨.. فمصر بالنسبة إليه من الناحية الثقافية كانت دوماً جزءاً من أوروبا وليس من الشرق[٢٥] واليوم يمكن أن نصف الثقافة العربية بأنها أميركية الملامح والقسمات الى حد كبير، على الرغم من وجود تيار مناهض لأميركا في أوساط المثقفين.

لقد أصبح الانسان العربي في الوقت الحاضر عالقاً في دوامة الثقافة الأميركية سواء أكان ذلك في المناهج وأسس التربية والتعليم، أم في أنظمة الدراسات الجامعية، أم في النظريات العلمية والأدبية والاقتصادية أم في البرامج والمسلسلات التلفزيونية التي تغزو العالم العربي بدءاً من قارب الحب ومروراً بفرقة الانقاذ.. وانتهاء بالرجل الآلي. وكل ذلك الى جانب النمط الاستهلاكي الرهيب الذي وجد الانسان العربي نفسه في شركه خلال السنوات الأخيرة.. هذا النمط الذي يلعنه الجميع علناً، ولكنهم يعيشونه في الواقع... هذا النمط الذي أدى بالعالم العربي أن يكون من أكبر الأسواق المستوردة لكل شيء في العالم، وأن يصل به الأمر الى استيراد ما لا يقل عن ٨٥٪ مما يأكله ناهيك عما يلبس أو يستعمله.. فهل أكون مغالياً إذا قلت إن ثمة

عملية إعادة تشكيل للمجتمع العربي تطبخها أجهزة امبريالية تحت شعار الثقافة وهل أكون مغالياً إذا قلت إننا من حيث ندري أو لا ندري مشتركون في هذه الطبخة وأخص المثقفين؟

لقد كشفت الصحافة الأميركية في الستينات تلك العلاقة الفاضحة بين وكالة الاستخبارات الأميركية المركزية (C.I.A) وكثير من المؤسسات الثقافية والاجتماعية والانسانية والمنظمات الطلابية المنتشرة في آسيا وأفريقيا، ومنها المنظمة العالمية لحرية الثقافة التي كانت تصدر العديد من المجلات بتمويل من المخابرات الأميركية[٢٦] وليس بعيداً عن الأذهان مجلة حوار وعدد من النشرات والكتب التي كانت تصدر أو ما تزال تصدر في لبنان، وتقتنص عدداً من الأدباء والمفكرين العرب الكبار، للمساهمة تحت الإغراء المادي.. وفي هذا الصدد أذكر منذ بضع سنوات قائمة بأسماء عملاء للمخابرات الأميركية في أحد البلاد العربية نشرتها بعض تلك الصحف الأميركية كان فيها عدد من أساتذة الجامعات ورجال الفكر والمال، ممن لا يمكن أن يساورك الشك حولهم، وهم ممن أكملوا دراساتهم هناك ويعملون في حقول حساسة كالنظريات السياسية والتاريخ الحديث والقضية الفلسطينية.. وهذا ليس مستغرباً فقد صرح به أحد المسؤولين السابقين في وزارة الخارجية الأميركية إذ قال: «إن لكل من الوسائل السياسية والاقتصادية والعسكرية قصورها في حين أن المكوّن التعليمي (الثقافي) يمكن أن يدعمها بطرق شتى.. وإذا استخدم بذكاء وحذق لأمكن أن يحقق أموراً تعجز عن تحقيقها الوسائل الأخرى، وهذا البعد (الثقافي) يكسب السياسة الخارجية الأميركية حيوية متجددة ومرونة»[٢٧]. ولكي تجسد الأمبريالية الأميركية هذا البعد في الواقع فإنها مضطرة الى استخدام كل المؤسسات العلمية والثقافية وتوجهها.. وهذا ما كشفته أخيراً صحيفتا «بوسطن غلوب» و«التايم» الأميركيتان في بداية هذا العام (١٩٨٦) عن علاقة المخابرات الأميركية بمركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفارد، أشهر الجامعات الأميركية وأوسعها شهرة في البلاد العربية، إذ دفعت للبروفسور نداف صفران، مدير المركز المصري الأصل، مبلغ خمسة وأربعين ألف دولار لتمويل مؤتمر عقد في جامعة هارفارد في شهر تشرين الأول من سنة ١٩٨٥ حول السلفية الإسلامية.

إن ما كشف في السودان مؤخراً عن ضلوع المؤسسات التبشيرية والثقافية والإنسانية في عمليات تهجير يهود الفالاشا الى فلسطين، لهو دليل آخر على تآمر الامبريالية على هذه الأمة.

وبعد في مثل هذه الأيام من سنة ١٩٦٨ انعقد في القاهرة المؤتمر السادس للأدباء تحت عنوان رسالة الأديب العربي في مكافحة الصهيونية.. وقد ركز المشاركون في المؤتمر على ارتباط الصهيونية بالامبريالية وعلى ضرورة التصدي للاثنين معاً... وجاء في القرارات والتوصيات أن مسؤولية الأدباء تتركز في توعية الجماهير العربية بالحقيقة الواقعية، وهي أن اسرائيل تمثل عدواناً دائماً ومستمراً في قلب الوطن العربي، وأن يعمل الأدباء على تجنيد كافة وسائل الاعلام في خدمة القضية الفلسطينية ومكافحة الصهيونية والاستعمار.

وفي تشرين الأول (اكتوبر ١٩٨٥) عقدنا في الجامعة الأردنية مؤتمرنا الثقافي الوطني تحت شعار ثقافتنا الوطنية في مواجهة الخطر الصهيوني وكانت مفاجأة لنا عندما اكتشفنا من خلال البحوث التي أعدت حول الرواية والشعر والقصة القصيرة والمسرح والصحافة والدراسات وأدب الأطفال، أن المواجهة كانت دون المستوى على الرغم من أن الدكتور سهيل إدريس قد قال في كلمته التي ألقيت في مهرجان الأدباء سنة ١٩٦٨: «لا بد لنا من أن نقرّ بأن مكافحة الاستعمار وربيبته الصهيونية في نتاجنا الفكري والأدبي قلما يبلغ المستوى المطلوب، فهو يفتقر إلى العمق والموضوعية والمنهجية بمقدار ما يتسم بالعاطفية والشعارية والدوغوغائية، ومن الأمثلة ذات الدلالة في هذا السياق تلك المجموعة من المقالات التي نشرتها مجلة (التان مودرن) الفرنسية بأقلام عربية إلى جانب مجموعة أخرى كتبتها أقلام صهيونية، ولعل مقال (مكسيم رودنسون) الماركسي اليهودي الذي يؤيدنا في قضيتنا أفضل من جميع المقالات التي كتبها كتاب من العرب»[٢٨]. فبعد ما يزيد على سبعة عشر عاماً من ذلك التحذير، وبعد الهزيمة المريرة سنة ١٩٦٧، وما تبع ذلك من نكسات ومآس، وبعد اتفاقيات كامب ديفيد وزيارة السادات للقدس والضلوع العلني للولايات المتحدة مع الصهيونية، أقول بعد ذلك كله تكون الصورة التي خرجنا بها من المؤتمر الثقافي غير مشجعة أو مطمئنة وهذا ما يدفعنا إلى البحث عن العلة.

لقد خلقت الثقافة الأميركية والامبريالية نوعين من الشخصيات في المجتمع العربي: الشخصية المنغلقة المنكفئة المصابة بصدمة رد الفعل والعداء لكل ما هو أجنبي، والشخصية المنخلعة الرافضة للماضي والحاضر، المتمثلة للحضارة الغربية بكل أبعادها وهمومها المستهترة بالقيم والعادات العربية.. وقد نشأ صراع بين الاتجاهين كان الخاسر فيه هو الوطن، كما ملئت الساحة العربية بالحساسيات الدينية والاقليمية والطائفية والعرقية والطبقية.. فأصبحت حياتنا كلها صراعاً وكأننا بذلك نؤكد أوصافهم لنا بأننا شعوب دموية لا تحسن إلا النزاع والقتال لأتفه الأسباب.. وخير دليل على ذلك ما يحدث على الأرض اللبنانية. لقد تحولنا عن أهدافنا السامية وقضايانا المصيرية الى أمور جانبية وهامشية وأصبحنا ننفذ بأيدينا وضد مصالحنا ما يرسم لنا ويخطط في الدوائر الاستعمارية، ومع ذلك يعلو صراخنا شاتمين مهددين للاستعمار.. ففي الروايات الأردنية الأربع عشرة التي قمت بدراستها، والعائدة الى السنوات الأخيرة، لم أجد ما يمكن أن أصفه، بمواجهة الغزو الثقافي، أو حتى الخطر الصهيوني، إلا بشكل باهت أو عابر هنا وهناك، مع أن الأردن أقرب البلاد العربية الى فلسطين، وأكثرها التحاماً بها سياسياً واجتماعياً وثقافياً واقتصادياً وديموغرافياً.. فكل هذه الروايات تقريباً تدور حول الاغتراب وأزمة الحرية وحياة الفقر التي يعيشها الإنسان على هذه الأرض الى جانب حديث الذكريات.. ولكن بعضها يتخذ وسائل الرواية الأجنبية الفنية بما فيها من غموض وإبهام وتداخل زماني ومكاني، مما يدفعني الى القول إن الغموض وتلك الوسائل الفنية المستعملة لم تكن لأسباب سياسية، كما يمكن أن يتبادر الى الذهن، ولكنها تندرج تحت ما يمكن أن أصفه بالانطباع الثقافي أو الانبهار بالنموذج الأوروبي، ذلك النموذج الذي يمكن أن يناسب البيئة الأجنبية لأنه جزء من تكوينها الثقافي والاجتماعي، ولكنه يظل غريباً علينا.

إن مواجهة الغزو الثقافي لا تتم إلا بوعي الذات، والثقة بالنفس، ودخول العصر الحديث بعزيمة وقوة وأمل.. لا تتم إلا بالارتباط

الواعي بالتراث.. لا تتم إلا بالارتباط العميق والمصيري بالتاريخ القومي لهذه الأمة والدفاع عنه أمام الرجعية ودعاة العصبيات الدينية والإقليمية والعرقية.. لا تتم إلا بمواجهة الذات بصراحة تامة، والالتزام بالموقف[٢٩] لتجاوز نواحي الضعف ومعالجة الأمراض المتراكمة... لا تتم إلا بالتعامل مع الواقع المتخلف للمجتمع العربي ومواجهة أدواته بجرأة وصراحة.. لا تتم إلا بتخليص المجتمع من مركبات النقص وعقد العجز.

فهل يمكن أن تكون هذه التصورات جزءاً من خطة قومية تتبناها الدول العربية أو المنظمات الثقافية في جامعة الدول العربية أواتحادات الكتّاب؟

الهوامش

(١) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة ص٢٨.
(٢) ابراهيم بدران، وثائق المؤتمر الثقافي الوطني الأول، ص٣٩٦.
(٣) أحمد الحوفي (أدب السياسة) ص٤٨٦.
(٤) عن كتاب (طه الحاجري) بشار بن برد، ص٧.
(٥) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، جزء ٧ ص٣٩١.
(٦) ديوان بشار، الجزء الأول، ص٣٨٩.
(٧) ديوان بشار، الجزء الثالث، ص٢٠٧.
(٨) ديوان أبي نواس، ص٦٨.
(٩) ديوان ابي نواس، ص١٥٦.
(١٠) ابن المعتز، البديع، ص١.
(١١) ناصيف اليازجي، العرف الطيّب، ص٤٩٥.
(١٢) عبدالكريم غرايبه، سورية في القرن التاسع عشر، ص١٨.
(١٣) الحصري، حولية الثقافة العربية، و د. عبدالكريم غرايبه، سورية في القرن التاسع عشر ص١٦٣.
(١٤) أنظر عبدالكريم الأشتر، مختارة من النثر العربي، ص٢٩-٣١ وتاريخ الجبرتي.
(١٥) ادوارد سعيد ـ الاستشراق ص٨، ١.
(١٦) لويس عوض، المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي ص٤.
(١٧) ادوارد سعيد ص٢١٦.
(١٨) ابراهيم خليل ـ الاستشراق والتبشير ١٠٢/١٠٣.
(١٩) سيجريد هونكه ـ فضل العرب على أوروبا ب/ج.
(٢٠) ادوارد سعيد، الاستشراق، ص٢٩٢.
(٢١) السابق ص٢٩٣.
(٢٢) (٢٢) انظر مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره، ص٩.
(٢٣) ادوارد سعيد، الاستشراق، ص٢٨٨.
(٢٤) انظر المرجع السابق، ص٧٨، ٧٩.
(٢٥) انظر البرت حوراني، الفكر العربي، ص٣٩٤.
(٢٦) هاني الراهب. الآداب ٤، وكذلك حسين مروة وعمر دقاق في العدد ذاته.
(٢٧) الراهب، الآداب، ، ص٢٦.
(٢٨) سهيل ادريس، الآداب، ع ١٩٦٨، ص١-٢.
(٢٩) انظر رأي محمد عابد الجابري بالمثقفين العرب الرحل في كتابه (العقل العربي). ص٤٥.

دار الآداب تقدم

مؤلفات الدكتور أدونيس